

صهيل القوافي في قصائد الأمير

- الأبعاد الدلالية لأصوات القافية في قصائد الأمير عبد القادر -

الباحثة. زينة بورويسة

طالبة دكتوراه / إشراف د. زهبة بورويس

جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة

الدلالة الصوتية في اللغة العربية بين القديم والحديث:

لقد كشفت الدراسات الحديثة عن اهتمامات وملاحظات محمودة استطاع التراث العربي تسجيلها حول مسائل الدلالة والمعنى ورغم أن هذه الملاحظات لم تكن تصب في صميم الدرس اللغوي دائما، إذ كثيرا ما ترد مقترنة بالبحث الديني أو الفلسفي، إلا أنها شكلت أساسا متينا لنشوء الدرس الدلالي الحديث، ويمكن الإشارة باختصار إلى جهود الهنود واهتماماتهم التي جاءت نتيجة لدراساتهم كتاب "الفيذا"، إذ ركزوا جهودهم حول مسألتين: نشأة اللغة، وعلاقة اللفظ بالمعنى: انقسموا في ذلك إلى فريقين؛ فريق رأى أن نشأة اللغة مسألة طبيعية، جاءت نتيجة محاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة، وفريق رأى بأنها علاقة لزومية. ولعل اليونان قد اتفقوا كثيرا في نظرهم لنشأة اللغة مع الهنود، إذ اختلفوا بين قائل بالمناسبة الطبيعية بين الألفاظ ومعانيها (أفلاطون) وقائل بوجود مواضع وإصلاح بين الناس (أرسطو)، والملاحظ أن هذه الاهتمامات اليونانية برزت بين الفلاسفة وأهل المنطق.

ويمكن تسجيل ملاحظات وإشارات مماثلة لما هي عند الهنود واليونان حول مسألة المعنى والدلالة عند كثير من الأمم والأقوام الأخرى، إلا أنها لم تكن في مستوى نضج الدرس العربي.

بدأ اعتناء اللغويين العرب بالبحث في الدلالة مع محاولاتهم الأولى لتدوين القرآن الكريم والحديث الشريف، وجمع متون اللغة العربية، ويمكن ملاحظة أولى ثمار هذه العناية من خلال كتب الغريب والنوادر التي اهتمت بشرح الغامض من كلام القرآن والحديث والشعر، ومع

نخاية القرن الثاني الهجري (ق2هـ)، بدت آثار التنظيم والتخصيص أكثر نضجا من خلال الكتب والمعاجم التي تجمع ألفاظ العربية، وتصنفها وفق معايير معينة، مع التركيز على شرحها، وعرض معانيها ودلالاتها، ومن ذلك معجم العين الذي صنف من خلاله الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ) ألفاظ العربية بحسب مخارج حروفها، والرسائل المتخصصة التي تجمع الألفاظ التي تصب في مجال محدد، كرسائل عبد المالك بن قريب الأصبعي (ت210هـ) في: النبات، خلق الإنسان، الشاء..... وغيرهما من اللغويين.

غير أن جهود من جاؤوا بعدهم بدت أكثر اتجاهها نحو وضع المعاجم الشاملة للألفاظ العربية، التي اتسمت بقدر أكبر من السعة والشمول، والتقصي والتنظيم، ورسمت خطأ واضح المعالم لحركة التأليف المعجمي.

وإن عدنا إلى قضية اللفظ والمعنى عند البلاغيين وجدناهم قد اختلفوا اختلافا كبيرا؛ فإن نحن أخذنا الجاحظ، الذي يعتبر واحدا من واضعي علم البيان العربي، وجدناه يقصي المعنى ويحفل باللفظ، فالمعاني - عنده - مطروحة في الطريق يعرفها كل الناس، وموجودة في داخل كل إنسان، وتحتلج صدره، أما الشأن والأهمية كلها فللفظ من حيث: مخارج حروفه، وإقامة وزنه، وجودة سبكه، ولا يمكن الاعتراف - عنده - بوجود معان طالما لا يوجد لفظ تلبسه، مع إشارته لأسبقية وجود المعنى، وأهمية العناية باللفظ.

وعلى عكس الجاحظ، يرى عبد القاهر الجرجاني أنه من الخطأ الفصل بين اللفظ والمعنى، بل إنه أنكر على النقاد الذين سبقوه ما قالوا به من قضية الاستقلالية، والأسبقية، والأفضلية بين اللفظ والمعنى.

لقد استطاع عبد القاهر الجرجاني أن يمسك العصا من الوسط؛ فجمع بين اللفظ والمعنى، وغلق باب الأسبقية والأفضلية بينهما؛ إذ "لم يكن اللفظ - عنده - محدودا في قيمته الصوتية، كما لم يكن المعنى قاصرا على الفكرة أو المضامين الأخلاقية والفلسفية وغيرها وإنما اللفظ بكل إمكاناته الصوتية وغير الصوتية في خدمة المعنى، والمعنى عنده هو كل ما نتج عن السياق من فكر، وإحساس، وصورة، وصوت"¹. ورغم هذا الاهتمام بالدرس الدلالي الذي بدا واضحا لدى اللغويين والبلاغيين والأصوليين والقدامى، فإننا لا نلمح ظهورا لعلم الدلالة

بما تحمله كلمة علم من دلالات - إلا في أواخر القرن التاسع عشر (ق 19م)، وتشير مجمل الدراسات والبحوث إلى أن حدود هذا العلم إذا استمرت مع (ماكس مولر) الذي ناقش في كتابه (علم اللغة 1862) العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى، ليظهر بعد ذلك الاهتمام بالدراسات الدلالية، وكان "أول من استعمل مصطلح علم الدلالة *semantique* هو اللساني الفرنسي بريال Bréal وذلك في مقاله الصادر عام 1883م، ثم ما لبث أن فصل القول في مسائل المعنى في كتابه الموسوم "محاولة في علم الدلالة *Essai de sémantique* وذلك سنة 1897م²، وهو كتاب أسس به لعلم الدلالة الذي وصفه بأنه العلم الذي يدرس المعاني وتغيراتها، ومناسبتها للألفاظ، فلفت بذلك انتباه اللسانيين إلى قصور النظرية اللسانية المعتمدة على الجانبيين الصوتي والنحوي فقط، والمهملة للجانِب الدلالي، إلا أن هناك من نسب مصطلح "علم الدلالة" لغير ميشال بريال، إذ "يشير فيرث *firth* إلى أن بلومفيلد *bloomfield* قد استخدم صيغة الوصف *semantic* في 1895م، كما احتوى كتابه *language* الذي نشر في 1933م على مصطلح "التطور" الدلالي *semantic change*"³، وكان اللغويان أوجدن *Oogden* وريتشارد *Richard* قد وضعوا كتاب "معنى المعنى" سنة 1923م الذي كان له الأثر الأكبر في منهجية البحث الدلالي، إذ تناولوا فيه جملة من القضايا المهمة كمفهوم اللفظ والمعنى، والعلاقة الموجودة بينهما، ونقد بعض الآراء الفلسفية حول المعنى، وكان دي سوسير *Desaussur* قد أخضع الدلالة لمنهج الرامي إلى الدراسة الآتية للغة أي دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها، فاستطاع بذلك الفصل في قضية أسبقية الدال والمدلول، بأن قال بعدم إمكانية الفصل بينهما، لأن العلاقة بينهما علاقة تداعي، فالعلامة لها طرفان، الدال والمدلول، الدال يستدعي المدلول، والمدلول يستدعي الدال بطريقة تجعلهما وجهين لعملة واحدة، لا يمكن الفصل بينهما، مع تركيز بحثه الدلالي على المدلول الذي يمثل الفكرة والمفهوم، وهذا ما أكده أولمان *Ullmann* في أبحاثه، إذ رأى أن العلاقة بين اللفظ والدلالة هي علاقة متبادلة، "فعندما يفكر شخص ما في "شجرة" مثلاً فسوف ينطق الكلمة (أي كلمة شجرة) كما أن سماعه هذه الكلمة يجعله يفكر في الشجرة"⁴.

واستكمالاً لمسار تراثهم، ومسايرة لمعاصريهم، أفرد الباحثون العرب بحوثاً ودراسات في علم الدلالة، كإبراهيم أنيس صاحب مؤلف (دلالة الألفاظ) الذي تناول فيه قضية نشأة اللغة، واكتساب اللفظ للمعنى، ومستويات البحث الدلالي، إضافة إلى أحمد مختار عمر في كتابه (علم الدلالة) وكمال بشرفي (قضايا لغوية)، وغيرهم.

مستويات التحليل الدلالي: للتحليلي الدلالي أربعة مستويات أساسية: المستوى النحوي، التركيبي، المعجمي، والصوتي. وسأقتصر بالحديث عن المستوى الصوتي.

- المستوى الصوتي: يعتبر علم الأصوات أغنى العلوم اللغوية خاصة في اللغة العربية، لما تتسم به من سمات خاصة مفتقدة في باقي اللغات، ولعل دلالة الأصوات على معانيها هو أهم هذه السمات، فقد أثبتت البحوث اللغوية، القديمة منها والحديثة، على أن الصوت اللغوي سواء كان مفرداً أو ضمن سياق لغوي محدد يؤدي دلالات تختلف عما يؤديه أي صوت آخر، ومثال ذلك ما ضربه ابن جني في الخصائص: قضم وخضم، فالقضم تدل على اليابس لقوة القاف، والخضم تدل على الرطب لضعف الخاء، بل ذهب كثير من الباحثين إلى القول بتشابه دلالات الألفاظ المتشابهة الأصوات، وقد اهتم بدراسة الدلالة الصوتية في العصر الحديث علم الأصوات الوظيفي أو علم التشكيل الصوتي، الذي يعنى بدراسة الأصوات في سياقها، أي داخل السلسلة الكلامية، وتأثير بعضها في البعض.

وقد خلصت دراسات هذا المستوى إلى جملة جد مهمة من النتائج في دراسات الدلالة الصوتية، لعل أهمها:

1- تختلف دلالات الأصوات المفردة عن بعضها البعض، خاصة أثناء الاستعمال. بل قد تختلف صور النطق لنفس الصوت من سياق كلامي إلى آخر، وهو ما اصطلاح على تسميته بالألوفون، أو الصور النطقية.

2- توجد بعض الأصوات قادرة على توليد نوع من الدلالة عند اتحادها الثنائي أو الثلاثي.

3- بالإضافة إلى الدلالات التي تحققها الصوامت والحركات (الأصوات التركيبية)،

توجد دلالات أخرى تعمل الأصوات فوق التركيبية على تحقيقها، ومنها ظاهرة النبر، التنغيم، الفواصل.

4- حققت طريقة التجويد القرآني جملة من الدلالات الصوتية من خلال بعض الظواهر، كالمدة، والإبدال، والوقف.

5- يلعب السياق بمختلف أنواعه، ووظيفة أساسية في تحقيق دلالات التشكيل الصوتي.

والدلالة الصوتية هي موضوع هذه الدراسة التي سنحاول من خلالها كشف حقائق دلالة الصوت في مستواه التركيبي المتشكل في قوافي بعض قصائد الأمير عبد القادر.

1- القافية وموسيقى الشعر:

من المسلم به أن موسيقى الشعر من أهم العناصر التي حركت الذائقة الفنية في الشعر العربي، وتعتمد أساساً على عنصرين لا يختلف حولهما أحد، الوزن والقافية. ويتمحور هذا البحث حول القافية التي يختارها الشاعر بعناية فائقة لما لها من أهمية في صناعة الموسيقى الشعرية. بل قد يتوقف نجاح قصيدته على حسن اختياره لحرفها الأخير الذي يطبع على النفس رنيناً قصد الشاعر تحقيقه، وهذا ما يفسر نجاح شاعر في قصيدة ما مقارنة بآخر في قصيدته التي تناولت نفس الموضوع وكتبت بلغة صحيحة مرتبة، إذ يكون الأول قد اختار لقصيدته قافية بأصوات مناسبة قادرة على رسم دلالة القصيدة، فيما قد يكون الآخر أغفل هذه النقطة المحورية في القضية.

والقافية في اصطلاح العروضيين (باختصار) كانت موضوع اختلاف إلا أننا سنعتمد تعريف الخليل بن أحمد (ت170هـ): من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يسبقه مع حركة الحرف الذي قبل الساكن. وللقافية ستة أحرف نذكرها باختصار: الروي، الوصل، الخروج، الردف، التأسيس، الدخيل. وسنخصص هذا البحث لدراسة حرف الروي فقط.

الروي: هو الحرف الذي تبنى عليه القصيدة، وتنسب إليه، فيقال: قصيدة لامية (حرف اللام)، لامية الشنفرى، سينية البحتري⁵.

والملاحظ على قصائد الأمير أنها كانت في أغلبها قصائد لامية، ميمية، ورائية. ولهذا الأصوات دلالات خاصة.

التحليل الصوتي/الدلالي لبعض القوافي:

● **قصيدة الباذلون نفوسهم**⁶: وهي قصيدة كتبها الأمير عبد القادر بعدما أشاع الفرنسيون أنه قد قتل ليفزعوا جيوشه في جبال جرجرة وبعث بها ليطمئنهم ويبعث فيهم الحماس من جديد. والقصيدة لامية، لامها مكسورة متبوعة بياء، مطلعها:

يا أيها الريح الجنوب، تحملني مني تحية مغرم وتحملي
وأقر السلام أهيل ودّي وانشري من طيب ما حملت ربح قرنفل

واللام صوت أسناني لثوي مجهور، قال فيه سيبويه "ومنها المنحرف، وهو حرف شديد جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت، ولم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة، وهو اللام. وإن شئت مددت فيها الصوت. وليست كالرخوة. لأن طرف اللسان لا يتجافي عن موضعه. وليس يخرج الصوت من موضع اللام، ولكن من ناحيتي مستدق اللسان فويق ذلك"⁷. لقد تمكن سيبويه من خلال هذا الوصف الوصول إلى أهم صفتين يتصف بهما صوت اللام وهما:

- الانحرافية.

- التوسط بين الشدة والرخاوة.

وينطق صوت اللام "باعتقاد طرف اللسان على أصول الأسنان العليا مع اللثة، بحيث توجد عقبة في وسط الفم تمنع مرور الهواء، ولكن مع ترك منفذ لهذا الهواء من جانبي الفم أو أحدهما، وهذا هو معنى جانبية الصوت، وتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به"⁸. والانحراف في اللغة العدول والتغيير، "وتحرف فلان عن فلان، وانحرف واحرورف واحد، أي مال"⁹.

ومن السمة النطقية الانحرافية التي يتفرد بها صوت اللام نستقي دلالة قوية تتمثل في العدول والزيغ عن طريق الصواب، ومخالفة الجماعة أو السلف والخروج عن نهجهم.

كما أن الانحراف في نطق صوت اللام إنما هو "انحراف عن الشدة إلى الرخاوة"¹⁰. فهذا المنفذ الجانبي الذي يسرب الهواء ويحرف مساره ينتقل بصوت اللام من صفة الشدة إلى صفة الرخاوة، وهذا ما حدا باللغويين إلى تصنيفه ضمن الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة. وهنا يكتسب صوت اللام دلالة أخرى تتعلق بالمرونة والمطاوعة.

وقد أحسن الشاعر حين اختار صوت اللام رويًا للقصيد إذ ساعدته اللام في رسم معاني المرونة والمطاوعة التي يتسم بها الأمير في التعامل مع جيشه الذي يفرض عليه الوضع السياسي والعسكري المتقلب أن يأخذه بالدين والرفق تمثلاً لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾¹¹. كما ساعدته اللام بخصيصتها المتمثلة في التوسط بين الشدة والرخاوة التي تعبر عن طرقة سياسته لجيشه، فتارة ييدي صرامة وشدة تليق بمحارب قائد مؤسس للدولة، وتارة أخرى تفيض نفسه بمشاعر الأخوة والعشير المخلص الوفي، وهذا ما يليق بالشاعر المهرف. فصوت اللام بخصائصه حمل دلالات قيمة في نفس الأمير الذي جمع الله له فيها بين الفارس القوي المحنك والشاعر الحساس الرقيق الخواف.

المصدر الذي استمدت منه الدلالة	دلالة صوت اللام
نَسْتَمِدُّ هده الدلالة من سمة اللام الانحرافية، وهي تعود إلى تسرب الهواء عند النطق باللام من جانبي الفم لوجود عقبة وسط الفم تمنع مرور الهواء.	1- دلالة الانحراف والعدول
نستمد هده الدلالة من اتسام اللام بالتوسط بين الشدة والرخاوة فتسرب الهواء من جانبي الفم ينتقل بصوت اللام من صفة الشدة إلى صفة الرخاوة.	2- دلالة المرونة والمطاوعة

● قصيدة طال ليلي يا أحبائي¹²: وهي قصيدة كتبها الأمير عبد القادر وبعث بها إلى إخوانه سعيد ومصطفى وحسين، بعد فرارهم اضطراراً إلى المغرب الأقصى من ضراوة المعارك مع الجيش الفرنسي سنة 1842م. وجاء فيها:

يا سواد العين يا روح الجسد يا ربيع القلب يا نعم السند
كنت لي قرة عين وبها هام قلبي لا بمال وولـد
فرمى الدهر بعيني أسهما مذ نأيتم لا أرى فيها أحد
أبروق الطرف شيء بعدكم؟ لا ورب البيت في هزل وجد

وروي القصيدة كم هو واضح صوت الدال. وهو واحد من الأصوات الخمسة المقلقة. وتمثل هذه الفئة الحروف الخمسة التي جُمعت في عبارة: (قطب جد)، وهي حروف اشتركت في سمّي الشدّة والجره، وسميت مقلقةً "لظهور صوت يشبه النبرة عند الوقوف عليها، وزيادة إتمام النطق بها، فذلك الصوت في الوقف عليها أبين من الوصل، وقيل أصل هذه الصّفة القاف، لأنّه حرف لا يقدر أن يؤتى به ساكناً إلاّ مع صوت زائد لشدّة استعلائه، وأشبهه في ذلك أخواته"¹³.

ووصف سيبويه هذه الأصوات بـ(المشربة)، إذ قال: "واعلم أنّ من الحروف حروفاً مشربة ضغطت من مواضعها، فإذا وقفت خرج معها من الفم صويت ونبا اللسان عن موضعه، وهي حروف القلقة.. وذلك القاف والجيم والطاء والباء والدليل على ذلك أنّك تقول: الحدّق، فلا تستطيع أن تقف إلاّ مع الصويت لشدّة ضغط الحرف، وبعض العرب أشدّ صوتاً كأنهم الذين يرومون الحركة"¹⁴.

إنّ النطق بهذه الأصوات المقلقة، من حيث إنّها أصوات شديدة مجهورة، يحدث وفق ثلاث مراحل سريعة، تتمثل في:

أ- الحبس الذي يتم باتّصال عضوين، ينتج عنه وقف مجرى الهواء وقتاً كاملاً.

ب- الإطلاق الذي يتمّ بانفصال العضوين انفصالاً سريعاً، ما حدى ببعض

المحدثين إلى تسميتها بالوقفات الانفجارية¹⁵.

ج- إصدار صوت يتبع الإطلاق؛ "فالصوت الشديد (الانفجاري) لا يتم نطقه النطق الكامل من غير أن يُتبع بصوت آخر مستقل عنه، هو هذا الهواء المندفع"¹⁶.
فإن كان الصوت الشديد مهموساً تُبع بصوت مهموس كالتاء، وإن كان مجهوراً تُبع بصوت مجهور وهي الحروف المقلقلة.

ويبدو مما سبق أن صفة القلقللة تتعلق بهذا الصوت، كما يسميه ابن جني، وهو الحاصل لتمام النطق بهذه الأصوات، وهو "في حقيقة الأمر مجرد إطلاق الهواء (release) بعد الوقفة الحادثة عن بداية النطق بالصوت الشديد المجهور ليحدث الانفجار، فيكتمل نطق هذا الصوت الشديد ويتحقق، إنه صوت شديد، أي وقفة انفجارية، والنطق به ساكناً دون قلقللة يفقده عناصر الانفجار، وهو جزء متمم لنطق الصوت"¹⁷.

كان هذا كلامنا عن القلقللة من الناحية النطقية، أما من الناحية اللغوية، فالقلقللة "مصدر الفعل قلقل، والمصدر الثاني لقلقال بمعنى حرك واضطرب"¹⁸، يقول الخليل: "القلقللة والتقلقل قلّة الثبوت في المكان، ويقال مقللاق وقلق، والمسمار السّلس يتقلقل في موضعه إذا قَلِقَ، وفرسٌ قُلُقُلٌ: جوادٌ سريع، والقلقللة شدة الصياح والإكثار في الكلام"¹⁹.

والقلقللة انطلاقاً من أصلها اللغوي ونطقها خاصة صوتية تنعكس على دلالة أصواتها، بإكسابها معاني القلق والأرق السّهاد، وتشوّش الأفكار، واضطراب النفس البشرية. وقد ساهم صوت الدال بقلقلته في نقل أحاسيس الشاعر المضطربة الحزينة، لأنه ابتلي بفراق أحبته، فجاءت القصيدة مزلزلة الحواف مؤرقة القوافي تعبيراً عن الخوف والحزن والاضطراب الشديد الذي ألمّ بالشاعر لسببين:

الأول: قلق الروح والجسد والتفكير من ضراوة المعارك مع الاستعمار الفرنسي لكون الأمير قائد دولة وجيش فهو أول المتأثرين بالوضع العسكري والسياسي.
الثاني: هجرة إخوانه إلى المغرب الأقصى وبعض جنوده مما أحدث فيه زعزعة كقائد يخاف الفشل وأخ يحن إلى إخوته الذين نشأ معهم وتقاسم معهم الحبز والسيوف.

وقد أحسن الشاعر حين اختار حركة الضم التي ساعدته على نقل ما يختلج فيه من المشاعر، فالضمة حركة تحمل قيمة تعبيرية مهمة تتمثل في الضيق والقلّة التي ترسم حال الأمير يقف وحيدا بعد هجرة إخوانه إلى المغرب الأقصى.

والضمة تحمل في طريقة نطقها دلالة أخرى لا يمكن إغفالها في هذا المقام وهي دلالة التمكن والثبات، وهو بالفعل ما يميّز شاعرنا الفارس والقائد والمؤسس الذي لا يمكن أن نتوقع منه في أي حال من الأحوال أن يستسلم للمشاعر ويرقد في سرير الألم والحزن، والقارئ لتاريخه ومسيرته سيدرك بعمق هذا المغزى.

● قصيدة ما في البداوة عيب²⁰:

نظم الشاعر هذه القصيدة إجابة عن سؤال طرحه عليه بعض قواد فرنسا حول أفضلية البدو على الحضرة. وهي قصيدة رائية مطلعها:

يا عاذرا لامرئ قد هام في الحضرة وعاذلا لمحّب البدو والقفر
لا تدمنّ بيوتا قد خفّ حملها وتمدحنّ بيوت الطين والحجر
لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر

وفي القصيدة يذكر الشاعر جمال البادية من بيوتها إلى شمسها وهوائها، إلى رجالها وشهامتهم، وأبنائها وخصالهم... مستعملا صوت الراء المدعم بالضمة حافة جميلة قوية للقصيدة. والراء صوت مجهور متوسط بين الشدة والرخاوة يمتاز بصفة منفردة هي التكرار الناتج عن الضربات المتكررة للسان أثناء النطق به.

أما عن دلالاته فلنا أن نستشفها من صفاته وطريقة نطقه. فإذا انطلقنا من صفة الجهر علمنا أنها صفة مجموعة من الأصوات القوية. بحيث تأخذ الأوتار الصوتية صفة التقارب الأشبه بالالتصاق عند النطق بها، وتسمى الأصوات الناتجة مجهورة، ومعنى الحرف الجهور أنه حرف قوي، منع النفس أن يجري معه عند النطق به لقوته وقوة الاعتماد عليه في موضع خروجه، وإنما لقبته بالجهر لأن الجهر هو الصوت الشديد القوي، فلما كانت في خروجها كذلك لقبته به، لأن الصوت يجهر بها، والقصد من (منع النفس أن يجري معه لقوة الاعتماد عليه) أنه أثناء النطق بالصوت الجهور يقترب الوتران الصوتيان إلى بعضهما بوضعية

أقرب للالتصاق، فيضيق الفراغ الحاصل بينهما بنسبة تسمح بمرور الهواء، لكن بإحداث ذبذبات منتظمة للوترين الصوتيين، والأصوات المجهورة العربية هي: أ ب ج د ز ع غ ق ص ط ظ ل ن وي م.

والجهر من الفعل جهر، وجهر بالكلام أعلن به، وجهر الصوت أعلاه وجهر الجيش استكثرهم، وكلام جهير، وصوت جهير أي عال، والفعل جهر جهارة، وجاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾²¹، أي يعلم طعن الكفار المعلن في الإسلام ونيبه، ويعلم ما تخفيه أنفسهم من الكفر والبغض له.

أما الجهر، فيضفي على أصواته دلالات مختلفة تماما، تتعلق بالقول بالمجاهرة والإعلان، والإفصاح، والفعل المعلن المكشوف المصرح به، وهذا ما لا نعهده إلا عند دوي القلوب المؤمنة، والإرادة الصلبة، والعقيدة الثابتة، الممتلئة بالإيمان والتقوى، والاعتقاد الجازم بقوة ووحدانية المعبود، يقول الزمخشري عن الجهر: "ورأيت فجهرت، واجتهرت، واستجهرت: رأيت عظيم المرآة؛ قال:

إن سراجا لكريم مفخرة تحلى به العين إذا ما تجهره

وجهرني فلان: راعني بجماله وهيبته، وجهرت الجيش واجتهرتهم: كثروا في عيني، وجيش مجتهر وجهور.. وفلان مشتهر مجتهر، وهو جهير للخير: خليق، وهم جهراء للمعروف؛ قال الأخطل:

جهراء للمعروف حين تراهم حلما غير تنابل أشار²²

فلنا إذن أن نستخلص من هذا الكلام أن الجهر صفة تميز بعض الأصوات التي تحمل دلالات الإعلان والانكشاف والمصارحة، وهي كلها أفعال لا تصدر إلا من رجل أخلص في دينه وأصاب في فعله، فجهر بما إلا تعظيما وسعيا ليحدو الناس حدوده. ويمكن تلخيص دلالات الصوت المجهور كما يلي:

الدلالة	المصدر الذي أستمدت منه الدلالة
الأصوات المجهرورة	1- أصوات مصاحبة لدلالة المجاهرة بالأمر، والإعلان، والإفصاح، والفعل المكشوف المصرح به.
	- دلالة نستمدّها من الأصل اللغوي للجهر .
	2- دلالة مجاهدة النفس والصبر على شدائد الدنيا وفتنها التي تهز النفس
	- دلالة نستمدّها من صعوبة النطق بما لقوة الإعتماد عليها في موضع فروجها، وتنتج عنها إهترازات

لقد أثبت الأمير عبد القادر في اختياره لحرف الراء تمكنه من فهم مكونات اللغة وكسب مفاتيح استعمالها، فالراء صوت مجهور قوي يمثل رجل البادية الشهم الشديد، ويمثل حياة البادية القاسية التي من رحمها يولد الرجال الأشداء. لكن البادية وأبناءها في الوقت ذاته يمثلون الحياة الرقيقة الجميلة المليئة بالحب والألفة، وهو ما يحمله صوت الراء بين طياته من خلال خاصيته المتمثلة في التوسط بين الشدة والرخاوة. ولعلنا نلمس ذلك الجمال وتلك الرقة والشاعرية في قصائد الأمير الكثيرة في الحب والغزل، التي كتبها في ابنة عمه وهي زوجته، ومن أجمل ما قال فيها:

ألا قل للتي سلبت فؤادي وأبقتني أهيم بـكل واد
تركت الصبّ ملتها حشاه حليف شحى يجوب بكل ناد

وزاد الشاعر قصيدته الرائية تعمقا في تصوير جمال البادية حين زين الراء بالكسرة التي تحمل دلالات الاتساع والتواضع واللين؟؟ وأي جمال كهذا الجمال الذي يزاوج بين البيوت الضيقة والأرض الواسعة، وبين الرجل الشهم والقلوب العاشقة، وبين القائد القوي والرفيق اللين.

خاتمة:

الأمير عبد القادر شاعر امتلك مفاتيح اللغة وأدرك أسرارها البعيدة بسعة اطلاعه وحسه المرفه، ولعل ذلك راجع بنسبة معتبرة إلى تذوقه فن الحياة بين يدي بيئة صارمة التكوين، جميلة الهيئة، رقيقة التأليف. فغدا الشاعر بطلا من أبطال زمانه في ساحة المعركة،

وعاشقا من طينة جميلة، ومدركا من فئة العلماء. وأما أهم خصائصه فهي إدراكه، فصارت اللغة العربية عجيبة سهلة التكوين بين يديه، بل إن القارئ لأشعاره ليدرك مدى عمق وتجذر اللغة العربية في عقل وقلب الشاعر الذي بحسه المرفه وعشقه اللامتناهي استطاع أن يخرج مكونات الأصوات اللغوية ويستعملها استعمالا يستثمر طاقاتها التعبيرية وإمكاناتها الدلالية حتى أصبحت خادمة مخلصمة بين يديه لكل المعاني التي شاء التعبير عنها، ونقلها إلى العالم الخارجي من شاشة كبيرة اسمها القصيدة، وسيلتها الأولى في النقل هي الأصوات اللغوية.

الهوامش:

- 1- قضايا النقد الأدبي، محمد ركي العشماوي، ص298.
- 2- دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، المكتبة الأنجلو المصرية ط6/1991م، ص8.
- 3- المعنى وظلال المعنى، محمد محمد يونس علي، ص89.
- 4- الدلالة الصوتية في اللغة العربية، صالح سليم عبد القادر الفاخري، ص28، 29.
- 5- يراجع مفتاح العروض والقافية، ناصر لوحيشي، دار الهداية قسنطينة 2002م، ص133-139.
- 6- ديوان الأمير عبد القادر، جمع وتحقيق العربي دحو، منشورات ثالة ط3/2007م، ص84.
- 7- الكتاب، سيبويه، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميّة بيروت ط1/1999م، ج4 ص435.
- 8- علم الأصوات، كمال بشر، دار غريب القاهرة 2000م، ص347.
- 9- كتاب العين، الخليل الفراهيدي، مج1 ص305.
- 10- مفهوم القوة والضعف في أصوات العربية، محمد يحي سالم الجبوري، ص52.
- 11- سورة آل عمران الآية 159.
- 12- ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص79.
- 13- التمهيد في علم التجويد، ابن الجزري، ص36.
- 14- الكتاب، سيبويه، ج4 ص174.
- 15- فصل كمال بشر في وصف الحروف المقلقلة ووقفاتها الانفجارية وأضاف على الحروف التي ذكرناها: الهمزة، والكاف، والتاء. يراجع علم الأصوات، كمال بشر، ص378، 393.
- 16- الدراسات الصوتية وأثرها في القراءات القرآنية، غانم قدوري الحمد، دار عمّار عمان ط1/2003م، ص257.

- 17- علم الأصوات، كمال بشر، ص380.
 18- معجم الصوتيات، رشيد عبد الرحمان العبيدي، مركز البحوث والدراسات الاسلامية العراق 2007،
 ص140.
 19- كتاب العين، الخليل الفراهيدي، مج3 ص 425.
 20- ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص50.
 21- سورة الأنبياء الآية109.
 22- أساس البلاغة، الزمخشري، دار الفكر بيروت ط1/2006م، ص107.

